



أشخاص

# إلياس صنبر

نضال المورّخ من أجل (اسم) فلسطين



(بلال جاويش)

نزحت عائلته من  
حيفا إلى لبنان،  
وعاش الحقبة  
الذهبية لبيروت  
الستينيات

أصدر «دراسات  
فلسطينية»  
في باريس مع  
فاروق مردم بك  
وسمير قصير،  
مقدماً الرواية  
الحقيقية للشعب  
الفلسطيني

جينيته، الذي نصحه بأن «ما نتحدث عنه لن نستطيع كتابته». إلى جانب كل هذا، واصل المثقف والمؤرخ الفلسطيني التزاماته السياسية، فهو ممثل فلسطين في منظمة الأونيسكو، وعضو في المجلس الوطني الفلسطيني منذ عام 1988، ووجه مألوف على قنوات التلفزة الفرنسية كلما أرادت أن تتطرق إلى تطورات القضية الفلسطينية. يقول إلياس إنه يمارس كل ذلك باستمتاع: «أنا أشتغل من أجل شعبي. عملي كثير لأنني محتل. لا أملك ترف الانتماء إلى بلد عادي»، ويضيف مازحاً: «ربما كنت ساموت من الضجر، لو لم يكن الأمر كذلك».

في سنة 2005، زار صنبر بيت العائلة في حيفا، وكتب نصاً مؤثراً عن رحلته. «ليست لدي ذكريات في البيت، لكنني كنت أحفظ حتى خطوط البلاط في أرضيته. كنت أعرف بالضبط ما الذي ساراه لكثرة ما ردد والذي تفصيله أمامنا». نسأله إن كان سيعيش هناك لو تحقق حلم العودة؟ «إذا استعدت البيت فسأحوله إلى مركز ثقافي يحمل اسم أخي الذي توفي منذ فترة. لن أعيش في حيفا، لكنني أريد هذا الحق وإن لم أستخدمه».

أريد أن تكون باريس منفاهي الاختياري لا الإجباري. هذا هو جوهر الحكاية».

يُصدرها فلسطينيون؟ «هذا صحيح. المجلة أخذت هذا الطابع منذ أعضائها الأولى. فريق التحرير لم يكن زائراً في فرنسا. كنا منخرطين في الحياة الثقافية الباريسية أصلاً، ونعرف الأرض التي نلعب فيها».

في تلك الأثناء، درّس إلياس صنبر تاريخ العالم العربي في العهد العثماني والانتداب في جامعة باريس السابعة، وأصدر كتاباً تاريخية باتت اليوم مراجع أساسية في القضية الفلسطينية. أما الكتابة الأدبية المقموعة والمؤجلة لديه، فوجدت متنفساً لها في نقل العديد من دواوين محمود درويش إلى لغة موليير. يضحك وهو يتذكر أن صاحب «جدارية» كان يردد دائماً أن إلياس يكتب الشعر سراً، وإلا لما جاءت ترجمته بذاك المستوى الرفيع من الدقة والجاذبية.

لم يكتب صنبر الشعر، لكنه تخفّف من فكرة أن «الأدب هو لذة شخصية، وأنه لا يفيد الالتزام والنضال». يقول إن التعبير الأدبي عن القضية الفلسطينية يمكن أن يكون أغنى من أي تحليل سياسي أو تاريخي. هكذا أصدر كتابين «ملك الغائبين»، و«القاموس العاشق لفلسطين»، ومزج فيهما السرد والسيرة والتاريخ والأنثروبولوجيا، كاشفاً عن نبرة أسرة ووجهة نظر غير تقليدية في مقارنة تفاصيل الحياة الفلسطينية ونثراتها ورموزها. أما مفاجأة لقائنا به في بيروت، فهي أن إلياس صنبر يضع حالياً اللمسات الأخيرة على باكورته الروائية التي ستصدر خلال العام المقبل. يمتنع عن ذكر عنوانها أو تفاصيلها، مستهدياً بصديقه جان

لم يشارك في القتال، فالمعركة كانت قد انتهت لدى وصوله، إنما شارك في نقل الجرحى إلى مستشفيات دمشق، ثم استقر في بيروت.

في «مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، حيث عمل باحثاً، عُرضت عليه فكرة تأسيس نسخة فرنسية من مجلة «دراسات فلسطينية». كان ذلك منعطفاً حاسماً في حياته. المجلة التي صدرت عام 1982 (منشورات «مينوي»)، واستمرت 27 عاماً (توقفت مؤقتاً منذ عامين لأسباب مادية)، أدت دوراً بارزاً في المشهد السياسي والثقافي الفرنسي. «كنا أنا وفاروق مردم بك في البداية، ثم انضم إلينا الراحل سمير قصير. اشتغلنا كثيراً وخصنا صراعات. وجود ليلي شهيد سفيرة لفلسطين في باريس عزز حضورنا أكثر». حققت المجلة مكاسب كبيرة داخل المجتمع الثقافي الفرنسي.

استقطبت مئات الكتاب والفلاسفة والشعراء والفنانين. كانت المجلة أشبه بـ «لوبي» فلسطيني نجح في تعريف الرأي العام الفرنسي بالرواية الحقيقية للمأساة الفلسطينية. المهم في كل ذلك، أن المجلة خاطبت قراءها بذكاء وجاذبية ورسالة، أي بطريقة يفضلها الفرنسيون والغرب عموماً. «فعلنا ذلك، من دون أي تنازل»، يقول صاحب «فلسطين، البلد الإتي»، مؤكداً على المناخ الفرنسي في إنجاح التجربة: «لا أتصور أننا كنا سننجح لو صدرت المجلة في بلد آخر. المجتمع الفرنسي يتميز بمستوى عميق ومتنوع من النقاش، كما أن فرنسا هي البلد الوحيد الذي يمتلك ما يسمى «مجتمع المثقفين». كان

المجلة كانت مثل زميلاتها الفرنسيات إنه كان محظوظاً بالفرع اللبناني للعائلة: «نجونا من معاناة المخيمات. جرحنا كان واحداً بالطبع، لكن ظروف عائلتي منحتنا فرصة العيش في قلب بيروت التي أعدها مدينتي لبيروت الستينيات. شغف بالكتب. اطلع على الأدب الفرنسي. كان يزل إلى ساحة البرج، وينتقي قراءاته من بسطة كتب يملكها شاب أرمني (هو صاحب «المكتبة العالمية» في مبنى جفنيور اليوم). الأدب لم يغيب عن بيتهم أيضاً. كان والده مولعاً بالشعر العربي، ويحب فيكتور هوغو. كان فخوراً بالتاريخ العربي، لكنه لا يُنكر عظمة رويسيار. يقول صنبر إن هذه الخلطة عبّدت الجسر الذي سينقله إلى فرنسا سنة 1968.

الشباب الذي أنهى دراسة الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اليسوعية، ذهب إلى باريس لإكمال دراسته، لكنه لم يشعر بأي غربة: «كأني كنت مدعواً إلى اكتشاف عالم سبق أن اطلعت عليه في الروايات». خلم صاحب «شخوص الفلسطينيين» بأن يصبح كاتباً فصاح مؤرخاً. لماذا؟ يقول إن شغفه بالأدب لم يتوقف، لكن الكتابة تأجّلت: «أنا قمعت نفسي. كانت لدينا فكرة مغلوبة عن الالتزام. ظننا أن الأدب لذة شخصية ولا يخدم القضية».

حصل صنبر على الدكتوراه في القانون العام والعلوم السياسية من جامعة باريس الأولى، ثم انتقل إلى بيروت، ومنها إلى دمشق، متطوعاً لقتال الجيش الأردني، الذي كان يحاصر آلاف المقاتلين الفلسطينيين في جلون المحاذية للحدود السورية.

## حسين بن حمزة

هو أحد أهم الناطقين باسم فلسطين في الخارج، وأحد أسماؤها الحُسنى إذا استعرنا جملة فلسطيني

آخر هو شفيق الحوت في وصف محمود درويش. الاسم، بأيّة حال، كان الشغل الشاغل للمؤرخ والمترجم إلياس صنبر، الذي نزحت عائلته من حيفا إلى لبنان عام النكبة، وكان عمره خمسة عشر شهراً. كان والده وديع صنبر مجاهداً معروفاً. نجا من مشانق جمال باشا سنة 1916 لصغر سنه، ثم شارك في النضالات المتتالية ضد الانتداب البريطاني وعصابات الهاغانا الصهيونية، وكان على رأس المدافعين عن حيفا حتى سقوطها، قبل أن يلحق بعائلته في صيدا، حيث يسكن أهل زوجته اللبنانية. النكبة ترافقت مع اختفاء اسم فلسطين عن الجغرافيا الرسمية. بالنسبة إليه، كان ذلك خروجاً من الزمان، لا من المكان فقط. لذلك، فهو يرى أن النضال الفلسطيني كله كان في سبيل استرداد الاسم. «اليوم، لا أحد يستطيع إنكار وجودنا. قد يقول بعضهم إننا إرهابيون، لكن لن يتمكن أحد من محونا مجدداً».

من صيدا، انتقلت العائلة إلى بيروت. كانت فلسطين شيئاً يومياً في حياتها، لكنه تعلم من والده أنهم عرب أولاً ثم فلسطينيون. كان مناخ العائلة قومياً ناصرياً. لا يزال يذكر خطاب عبد الناصر في تأميم قناة السويس، وفرحة والده الممزوجة بالدموع. يقول صاحب كتاب «1948/الطرد»

## 5 تواريخ

1947

الولادة في حيفا - فلسطين

1982

انطلاق النسخة الفرنسية من «دراسات فلسطينية» في باريس، وقد ترأس تحريرها حتى توقفها قبل عامين

1984

كتابه الأول (بالفرنسية): «1948/الطرد»

2005

صدور «ملك الغائبين» (عزبته ماري طوق، عن «دار النهار»)

2010

يضع اللمسات الأخيرة على باكورته الروائية التي ستصدر العام المقبل